تاريخ تطور
ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية
والظروف التاريخية الجديدة
بعد تفكك الاتحاد السوفيتي
(تقرير)

د. سعيد هبة الله كامليف

عناصر:

أ-المعالم الأساسية لمكانة الإسلام في الإمبراطورية الروسية وفي الدولة السوفيتية التي حلت محلها في ١٩١٧م خلفية تاريخية لتطور الترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية:

١- من أهم ميزات تاريخ روسيا عبر القرون هو نشر الإسلام وتطوره ديناً لمواطنيها الأصليين، وليس النازحين من الخارج، كما هو الحال مثلا في أوروبا، فضلاً عن كون الإسلام أخذ يترسخ في الأراضي الروسية قبل انتشار المسيحية الأرثوذكسية، وبالتالي صار تاريخ الشعوب المسلمة فيها جزءاً عضوياً لا يتجزأ من تاريخها العام.

٢- إدراك هذه الميزة المبدئية والاقتناع بها من قبل حكام الدولة الروسية والذي ظهر بكل وضوح في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية التي بادرت في سنة ١٧٨٨م بإنشاء دار الإفتاء الإسلامية في مدينة أوفا (عاصمة جمهورية باشكرتستان الحالية) وبنشر الطبعات الأولى للمصحف الشريف في العاصمة الروسية آنذاك –مدينة ساتكت بطرسبورغ- ثم تباعاً في مدينة قازان (بلاد التتر على ضفتي نهر فولغا) وذلك بالخط الخاص الذي أطلقت عليه تسمية "بصمة" واشتهر بوضوحه وجماله بين المسلمين في روسيا نفسها وفي أطرافها.

٣- أما الترجمات الروسية لمعاني الذكر الحكيم فتعود إلى أزمنة أبعد من عهد الإمبراطورة كاترين الثانية، إلا أن المهم منها لدينا نظرياً وعملياً هو الترجمات المنقولة عن النص العربي مباشرة وهو ما حصل في القرن التاسع

عشر على يد المستشرق الروسي سابلوكوف والجنرال بوغوسلافسكي، وقد اتسمت ترجمة هذا الأخير بالمزيد من الإتقان والدقة قياساً على ترجمة الأول، بيد أن بوغوسلافسكي امتنع عن إصدار ترجمته إذ سبقه في سنة ١٨٧٨م سابلوكوف، ومهما كان من أمر فقد صارت هذه الطبعة الأولى حدثاً هاماً في الحياة الدينية الثقافية لا للمسلمين في روسيا فحسب، بل ولكل المجتمع الروسي على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين، وحظيت بإقبال متميز حتى لقد أعيد إصدارها مرتين في سنة ١٨٩٤ و ١٩٠٧م.

٤- وقد قدِّر لتلك الطبعات الثلاث أن تبقى، على امتداد قرن كامل، مصدراً وحيداً لترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية؛ إذ إن نشأة الدولة السوفيتية التي خلفت —نتيجة لثورة أكتوبر سنة ١٩١٧م– الإمبراطورية الروسية القيصرية حالت دون أي نشاط علني داخل البلاد في مجال الدعوة والتوعية الدينية على اختلاف أنواعها وألوانها، وذلك تطبيقاً لغايتها المنشودة الرامية إلى القضاء مبرماً على الدين. ومن الممكن تصور أبعاد القهر الفكري المترتب على السياسة المضادة للأديان التي أطلق عليها رسمياً لقب "سياسة الإلحاد المهاجم" إذا ذكرنا مثلاً أن المستعرب الروسي المشهور الأكاديمي كراتشكوفسكي الذي كان يدأب على ترجمة جديدة لمعاني القرآن الكريم خلال الفترة من سنة ١٩٢١ إلى ١٩٣٠م، واستمر فيما بعد في تحقيقها طوال عمره، لم يعتزم تقديمها للنشر، ولم يتم إصدارها إلا في سنة ١٩٦٣م أي بعد مرور عشرة أعوام على وفاته، وذلك بمبادرة تلاميذه الأوفياء. وهكذا أصبحت ترجمة الأكاديمي كراتشكوفسكي هي الوحيدة التي أنجزت في عهد الحكم السوفيتي.

ب- الظروف التاريخية الجديدة التي نشأت في أراضي الاتحاد السوفيتي بعد تفككه في بداية التسعينات للقرن العشرين المنصرم وأحوال ترجمة معاني القرآن الكريم ومشكلاتها فيها:

١- من أهم نتائج تفكك الدولة السوفيتية وانهيار العقيدة الشيوعية نهضة المشاعر الدينية عموماً والصحوة الإسلامية المباركة خصوصاً، وهي التي أتاحت لمسلمي المنطقة فرصة عظيمة لإرضاء تعطشهم إلى مصادر الدين الحنيف وأمهات كتبه، وهو ما جرى فعلاً على نطاق عريض بحمد الله تعالى ثم بفضل الدعم النزيه لهم من قبل إخوتهم من العالم الإسلامي المعاصر الذين لم يدخروا جهداً ولا طاقة في سبيل مد يد العون والتعاون على البر والتقوى، وأسهموا في تزويدهم بالألوف من نسخ المصحف الشريف والكتب الإسلامية العربية والمترجمة إلى اللغة الروسية، فتكررت مراراً الطبعات الخاصة بترجمتي سابلوكوف وكراتشكوفسكي وغيرهما من المترجمين.

٢- وظهرت أواسط التسعينات للقرن العشرين الماضي الترجمات القرآنية الجديدة بقلم د. شوموفسكي –المستشرق من المدرسة العلمية التابعة لسانكت بطرسبورغ- والسيدة فاليريا إيمان بوروخوفا والبروفسور عثمانوف وبروفسور أوشاكوف والأستاذ توفيق إبراهيم سلوم وغيرهم.[١]

٣- وينبغي التوقف خاصة عند مشروع الترجمة الروسية المفسرة بعنوان "نور القرآن في تفسير القرآن" والذي بدئ بتنفيذه من سنة ١٩٩٩م بمبادرة "مركز البحوث الإسلامية باسم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب"

---

(١) هذه الترجمات كلها عليها ملحوظات، وقد درس بعضها في المجمع، وتبين أنها غير صالحة (اللجنة العلمية).

في جمهورية إيران الإسلامية. وقد صدر المجلدان التاسع عشر والعشرون من هذا المشروع الكبير واللذان يحتويان على سور الجزء الأخير من كتاب الله، ويعدان تجربة أولية سوف تستمر بعد تلقي الملاحظات والتعليقات والاقتراحات بصددها من طرف الاختصاصيين وجمهور القراء. ومهما كان من أمر فإن هذين المجلدين يدلان من حيث سلامة لغتهما الروسية ووضوح الشروح والتعليقات وحسن الإخراج الطباعي على العمل التحضيري الجيد من قبل القائمين على هذه المبادرة الحسنة. وما من شك في أن أحد الأسباب لكل هذا التوفيق لا يعود إلى حسن التخطيط والتدبير فحسب، بل إلى أن الناشرين قد تمكنوا من تنظيم العمل الجماعي حق التنظيم، الأمر الذي نوهوا به بشكل خاص على وجه الغلاف بعنوان إضافي "تأليف مجموعة من علماء المسلمين".

ومن هنا يستنتج من جديد وبكل يقين أن العمل الجماعي المنظم والمخطط له سابقاً يمثل أول الشروط لتنفيذ أي مشروع لترجمة معاني القرآن الكريم على المستوى المطلوب واللائق لمتطلبات عصرنا الحديث، والذي يتميز باحتدام الصراع الفكري العقدي على الصعيد العالمي عموماً وفي أراضي الاتحاد السوفيتي السابق بخاصة.

٤- هذا، وكان لكل واحدة من المبادرات الحميدة المذكورة كافة قسطها المشكور في الإسهام بتقريب نص كتاب الله إلى المتشوقين للتعمق في معانيه، وهو ما لا بد من استمراره للسير بهذه المهمة الجليلة نحو غايتها القريبة البعيدة تحقيقاً لرسالة خالدة ينبغي لها ألا تتوقف عند حد المراجعة للمنجز والتصحيح للمقصر والطموح إلى التحقيق الأفضل والاستنتاج

البناء لتعزيز أساليب الترجمة القرآنية، ولبلوغ المزيد من إتقانها الأدبي الفني. ويجدر بالذكر أن الخبرات التي توافرت نتيجة العمل الدائب المستمر في مجال الترجمات الروسية لمعاني الذكر الحكيم في السنوات الأخيرة قد يستحق بعضها تعميماً خارج روسيا على صعيد نشاط الترجمة لأمهات الكتب الإسلامية إلى سائر لغات العالم المعاصر.

٥- إن أكبر العوائق والصعاب على طريق إنجاز المطلوب من إعداد الترجمة الروسية المثلى قد تعود إلى غياب التنسيق الكامل بين شتى الجهات الراغبة والقادرة على تهيئتها، مما يؤدي إلى عدم الحرص على مراجعة الأصول من تفاسير وشروح وتأمين الحد الأدنى للمصادر والمراجع التي لا غنى عنها في مثل هذا الجهد المتشعّب والمتميز بالمزيد من المسؤولية والاهتمام.

يُفَصَّل بذلك غياب الاتفاق على المبادئ الأساسية المنسقة الموحدة لطرق ترجمة معاني القرآن وأساليبها وتوحيد المصطلح القرآني المنقول إلى اللغة الروسية، والدلالات والمفاهيم المتعلقة بضبط الألفاظ كالأسماء الحسنى والصفات العليا، وأسماء الأنبياء والمرسلين وغيرها من الأسامي والمصطلحات الواردة في الأصل، وكذلك وجوب رسم واضح لغايات الترجمة المعنية وتحديد المخاطب بها، وبالتالي تعيين مقدار ونوعية الملحق بها من الإيضاحات والشروح المناسبة.

٦- هناك بعض الاستنتاجات الأخرى المتعلقة بالنواقص التنظيمية ومنها مثلاً صيغة ارتجالية عفوية قد يتسم بها كل عمل في مجال ترجمة الذكر الحكيم إلى اللغة الروسية حين يكاد يكون إصدار الترجمة الجديدة حدثاً مفاجئاً غير متوقع بالنسبة للقراء والخبراء، وبالتالي لا تتاح الفرصة السانحة لإزالة

النواقص وتصحيح الأخطاء الواردة فيها والأخذ بعين الاعتبار الملاحظات البناءة قبل الشروع في الطبع. ومن هنا لا غرابة في أن جميع الإصدارات المذكورة تتسم بعيوب بينة، كان من الممكن تفاديها حتماً وبيسر ملحوظ في حالة عرض نص الترجمة والشروح على من يلزمه هذا للاطلاع والمراجعة قبل تقديمها إلى المطبعة (الأمثلة ...)

ج- المقترحات

- نظراً للأهمية البالغة والمسؤولية القصوى لترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية لكونها لغة التخاطب بين الشعوب والقوميات القاطنة في روسيا الاتحادية كافة وجاراتها من الدول الإسلامية الفتية.
- ونظراً لواقع وجود العدد الملحوظ من الشعوب المسلمة في المنطقة التي تعجز بحكم الأسباب التاريخية الموضوعية عن إعداد الترجمة المطلوبة لمعاني القرآن الكريم إلى لغاتها القومية.
- ونظراً لمكانة الترجمات الروسية كمثال مرجعي استشاري للترجمات إلى تلك اللغات القومية التي تتم ترجمة معاني القرآن الكريم إليها في المنطقة.

١- يقترح بذل الجهد الكافي لجعل قضية ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية أمراً شاملاً يتم تحت الإشراف المباشر لجهة أو جهات تتمتع بالأهلية والجدارة والإمكانات التنظيمية التنسيقية المناسبة، علماً بأنه قد لا يكون ميسوراً في الوقت الراهن وفي المستقبل المنظور إيجاد جهة مناسبة لا على صعيد روسيا ولا رابطة الدول المستقلة التي انبثقت على أطلال الاتحاد السوفيتي السابق؛ لتتولى مسؤولية أداء هذا الواجب الآني والعاجل، ونحن نحبّذ أن تفكر ندوتنا المنيفة هذه في إمكان تكوين شعبة خاصة

بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية لدى مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، وبالتعاون العملي الوثيق مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة –إيسيسكو– بوصفهما من أفضل الجهات لتحقيق هذا الغرض المنشود بالنسبة لدول كروسيا وسواها حيث يؤلف المسلمون أقليات دينية، وذلك بحكم منزلتهما ونفوذهما المستَحَقين نتيجة أنشطتهما المثمرة البناءة خلال السنوات المنصرمة والخبرات والتجارب التي توافرت لديهما في مجال التربية الإسلامية عامة وفي مجال نشر المعرفة بتعاليم الإسلام وتعميمها في العالم أجمع.

٢- وإذا كانت قضايا الترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية تتسم بصفات لابد من أن تكون مماثلة لما هو معروف في مجالات الترجمة إلى سواها من اللغات، سيكون من الأفضل لو أن التدابير المرجوة في هذا الأمر التي قد تتخذها المنظمتان الموقرتان غير مقتصرة على اللغة الروسية وحدها، بل وتشمل بعنايتهما اللغات الأخرى الموجودة على أبعاد الاتحاد السوفيتي السابق، وبالتالي سترأس وتنسق المنظمتان أمر القيام بترجمة أمهات الكتب الإسلامية بكاملها ضماناً لرفع مستوى العمل ذي الأهمية الحيوية وإعلائه إلى الحد المبتغى إن شاء الله.

فهرس الموضوعات

الترجمات الروسية المتقدمة ١
ترجمة كراتشكوفسكي وما تلاها ٢
عقبات على طريق إنجاز المطلوب ٥
بعض الاقتراحات المناسبة ٦
فهرس الموضوعات ٨